أدب المعمرين وظهور الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

قبل الكتاب الجزائريين بالفرنسية (عوامل نشأة الظاهرة):

قبل التعرض للأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، نتوقف عند الكتابة بالفرنسية عموما من طرف المستعمرين الفرنسيين في الجزائر. ونلاحظ هنا أنواعا من الكتابة وعدة توجهات أو مراحل:

كتابات متنوعة (مذكرات جنود وإداريين وتقارير...): فالجنرال أوجين دوماس *Eugène Daumas (1803-1871)* قائد حملات ومدير لشؤون الجزائر كتب: القبائل الكبرى *1847* و: الصحراء الكبرى أو مسار قافلة صحراوية إلى بلد الزنوج *1848*. و: أعراف وتقاليد الجزائر *1853* و: خيول الصحراء وأعراف القفار *1858*. إن عدد هذه الكتابات كبير وهي ذات أهمية بالغة لدى المؤرخين لما تقدمه من معلومات وأفكار سواء عن جرائم الاستعمار أو عن نظرته الدونية إلى الجزائريين.

كتابات الاستشراق الفرنسي:

أول ما يقابلنا: تيار الاستشراق *Orientalisme* وهو شامل لوجوه عديدة من النشاط على رأسها الرسم والأدب والبحث الأنتروبولوجي والتاريخي. فعندما زار أوجين دولاكروا الجزائر سنة *1832* وعرض لوحته (نساء جزائريات في منازلهن) سنة *1834* لقيت نجاحا كبيرا، ومنذئذ تحولت فكرة الإقامة في أفريقيا الشمالية إلى عنصر ثابت في تكوين الرسام الفرنسي. وبسرعة صاروا يطمحون إلى عدم الاكتفاء بالإقامة في الجزائر العاصمة بل التوغل في الجنوب، كتب موباسان يقول: " ما أن تضع رجلك على هذه الأرض الإفريقية، حتى تجتاحك رغبة خاصة للذهاب بعيدا في الجنوب.. الجنوب ! يا لها من كلمة عجلى ! محرقة ! الجنوب ! النار !". ومعظم أعمال الاستشراق تتوزع على الدراسات والأبحاث التاريخية والأنتروبولوجية واللغوية خصوصا التي تضمها المجلات المتخصصة كالمجلة الإفريقية *Revue Africaine* من جهة والرحلات والقصص والحكايات التي لا تخرج عن الايدولوجيا الكولونيالية وخط التصوير العجائبي للجزائريين (الأهالي) [1].

<u>التعليم وإنشاء جامعة الجزائر:</u>

اقتصر التعليم في البداية على أبناء المعمرين إلى 1850 تاريخ مراسيم تنظم التعليم الجزائري أي ببداية العهد الإمبراطوري الذي تبنى خطة لتعليم الجزائريين استمرت إلى 1870 وكان هدفها الأساس نشر الفرنسية (والتنصير والإدماج) على حساب العربية.

بدأت نواة جامعة الجزائر في:1832 حين رخص للمترجم العسكري بتقديم دروس في العربية للموظفين ومنه كلية الآداب 1832 التي تعد من أقوى مدارس الاستشراق؛ إذ نظمت في 1905 المؤتمر الثامن للمستشرقين. ثم بمدرسة للطب في 1833. وبدروس في الحقوق في: 1857. وبمدرسة للعلوم في: 1845 و1868 على مراحل مختلفة. والمهم أن الجامعة **أنشئت نهائيا** بالقانون المؤرخ في: 30 ديسمبر 1909.

---

(1) فإذا أخذنا غي دي موباسان *Guy de Maupassant* كنموذج فإننا سنجده ممتلئا باحتقار العنصر غير الأوروبي الذي لقيه في هذه الرحلة. يقول: " يمر العرب تائهين دوما دون قيود, دون تعاطف مع هذه الأرض التي نملكها ونجعلها خصبة ونحبها بشغف قلوبنا المفعمة بالإنسانية, يمرون بسرعة على خيولهم مفتقرين إلى ما نقوم به من أعمال وغير مكترثين بهمومنا كما لو كانوا قاصدين مكانا لن يصلوا إليه أبدا ! " ويجد الفرصة للسخرية في أي شيء يراه لدى العرب، فيسخر من نظامهم الزراعي البدائي ومن قضاتهم المرتشين، بل يسخر من ثائر اسمه بوعمامة، فثورته سببها المجاعة لأن العرب لا يقاتلون إلا للسلب والنهب، ويسجل زهد الإنسان العربي، مما يجعل قتاله أمرا صعبا وملاحقته مستحيلة. كما يسخر من التزام الجميع بصوم رمضان رجالا ونساء وأطفال، حتى بنات الهوى والجنود المتعاونون مع الاستعمار. ونقس السخرية يخصصا للنساء الجزائريات فهن كريهات الرائحة وهن إما ضحايا أو مومسات وبالجملة (في هذه الأرض سيدات جميلات وملتهبات يجهلن رقتنا وحناننا, تبقى أرواحهن بسيطة بعيدة عن الانفعالات العاطفية وقبلاتهن كما يقال غير قادرة على خلق الحلم !).

سنقرأ في القائمة الطويلة لهؤلاء الرحالة المنجذبين إلى وهم سحر الشرق عددا كبيرا من الكتاب والرحالة، قد يكون من أكثرهم شيوعا لدينا: إيزابيل إيبرهارد *Isabelle Eberhardt* (1877-1904) وإتيان ديني (الحاج نصر الدين ديني) *Etienne Dinet (1861-1929)* ومن أعمال إيزابيل (الجنوب الوهراني 1905) – مدونة الطريق 1908 – صفحات الإسلام 1908- جوال 1911- في الظل الدافئ للإسلام 1921- في بلد الرمال 1925. أما ديني ففنان استشراقي مرموق عاش ببوسعادة، نشر

رواية خضرة راقصة أولاد نايل 1910 ثم في 1911 نشر حكايات: الفيافي والقفار أو الصحراء، ثم في 1918 حياة محمد رسول الله مع سليمان بن إبراهيم..

الصحافة الكولونيالية ثم الوطنية:

أسهمت الصحافة الكولونيالية بشكل كبير في فرض الفرنسية وإيصالها إلى الجزائريين وخلق علاقة بينها وبينهم، لم تكن علاقة واضحة إذ لا تعدو أن تكون آنذاك لغة الإدارة الاستعمارية، لكنها فرضت عليهم كلغة تؤمّن لهم الإدارة والتعلم والتوظيف..ولهذا بادرت الإدارة الاستعمارية بإصدار الصحف منذ وطئت أرض الجزائر فصدر عدد1(ساعي الجزائر) *l'Estafette d'Alger* جوان 1830 ثم العدد2 في:05 جويلية 1830، ثم توالت الصحف [1]، ثم المبشر الجزائري 1832 إلى 1857..وفي سنة 1903 أضاف فيكتور باروكان ملحقا بالعربية لجريدته (الأخبار). والملاحظ أن **النخبة الوطنية شاركت أحيانا بالكتابة بالفرنسية في عدد من صحف المستعمر ثم أنشأت صحافتها الخاصة** فكانت تصدر باللغتين أو بالفرنسية أو بالعربية ويهمنا النوعان الأولان ففي 1904 أصدر العربي فخار (المصباح) باللغتين، في 1909 أصدر الصادق دندن (الإسلام) بالفرنسية، ثم أصدر بها الحاج عمر وأندريه لينغوا (الراشدي) 1910، ثم الطيب خدة (السجيع) باللغتين 1912، ثم صدرت في 1920(المستقبل الجزائري) باللغتين لابن التهامي وصالح بوخربة، ثم في 1922 (الإقدام) باللغتين للأمير خالد ثم (التقدم) باللغتين أيضا في 1923 [2]. يقول فلاديمير ماكسيمنكو (الأنتليجانسيا المغاربية ترجمة عبد العزيز بوباكير ص: 67): " في مطلع العشرينيات أنشأ المعلمون الجزائريون جمعية المعلمين (الأهالي)، وابتداء من 1922 شرعوا في إصدار جريدة شهرية خاصة هي " صوت المتواضعين*la voix des humbles*"، لكنها بالنسبة إلى زمنها لم تكن تعبر عن تطلعات الجزائريين بل عن روح اندماجية.

أدب المعمرين والفرنسيين غير الجزائريين:

لقد لاحظنا في مطلع الحديث سلسلة من كتابات الفرنسيين (تقارير - رحلات – الاستشراق ..) التي تحمل نفس مواصفات الكتابة الاستشراقية التي ترافق الاستعمار والعنصرية في كل مكان (يستثني جون ديجو إتنيان ديني وإيزابيل إيبرهارت)، لكنها لم تكن كتابات متخصصين. وقد أطلقت على هذا الأدب تسميات عديدة لا تخرج عن العنوان العام (أدب كولونيالي)؛ لأنه جزء من المؤسسة الكولونيالية وعنصر من عناصر استراتيجيتها. وسنلقى هنا عدة حركات أو مراحل:

حركة الألجيريانزيم *L'Algérianisme* (من الصعب ترجمة المصطلح وربما يمكن تعريبها: الجزائريانيين)، حدد جون ديجو *Jean Déjeux* فترتها بين: 1900 و1935 *(La littérature Algérienne contemporaine p :20)*، ويرى أن الجزائر ازدهرت ساسيا وماليا منذ 1900 (انتخاب برلمان لها، وميزانية خاصة) مما ولد إحساسا بهوية خاصة. على رأس رواد هذه الحركة **روبير أرنو** *Robert Arnaud* (Robert Randau) (1873-1950) وقد أصدر روايتين[1]:

---

(1) ولنستعرض عينة جد صغيرة من بعض الصحف صدر معظمها قبل 1850: محرر المتيجة 1848، بريد بون (أي عنابة) 1849، ديمقراطي البليدة 1849، صدى وهران 1847، السيبوس 1852، جريدة قسنطينة 1848، الجزائر الجديدة 1859، مبشر المستعمرة 1857....

(2) لنلاحظ أن الصحيفة بالعربية موجهة إلى جمهور حافظ على لغته وإلى الرأي العام العربي، أما اعتماد الفرنسية فيؤدي وظيفة مزدوجة؛ إذ يتواصل مع الجمهور الجزائري الذي لا يجيد إلا الفرنسية وإلى الرأي العام الفرانكوفوني. ففي 1930 صدرت (الأمة) لحزب نجم شمال إفريقيا بالفرنسية، وأصدر اتحاد النواب الجزائريين في 1935 (الوفاق) بالفرنسية، وأصدر حزب الشعب الجزائري (الشعب الجزائري) 1937 باللغتين، وظهرت في 1948 (الجمهورية الجزائرية) باللغتين 1948 للاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري وفي 1953 صدرت (المجاهد) لجبهة التحرير الوطني.

(3) وقد كتب ماريس وأري لوبلون *Marius et Ary-Leblond* يقدمان الرواية الثانية: " إنها أول تجربة لتأسيس ذهنية جزائرية، واعية بتركيبها، مصممة و مصفاة".

المعمرون 1907، ثم الألجيريانيست 1911، وهو أول ظهور للمصطلح، فهو أبو الحركة وقد أسس سنة 1921 " جمعية الكتاب الجزائريين" والمجلة الأدبية " إفريقيا " وأصدر سنة 1921 بيانا يؤسس الحركة فعليا ورأى مع أصدقائه أن جزائر المستقبل بشعب بربري فرنسي ستكون " ذات لغة وحضارة فرنسية". ومن هؤلاء الكتاب: صديقه جون بوميي *Jean POMIER* (1886-1977) لويس برتران (1866-1941) لويس لوكوك (1885-1932) Louis Lecoq... شارل هاجل Charles Hagel (1885-1938) وكذلك بول هاشار Paul Achard (1887-1962) وشارل كورتان Charles Courtin (1884-1962) ولورون روبا Laurent Ropa (1891-1967) وغيرهم..

" ويتفق النقاد على أن الرواية المسماة كولونيالية لم تبلغ مكانة الروايات الفرنسية، بل كانت ضعيفة الحبك، يطرح أصحابها أفكارا مسبقة نابعة من تفوق الجنس الأوروبي وتخلف العربي، يسيطر عليها رأي المؤلف وينعدم فيها التحليل الدقيق للشخصيات الروائية كما يبدو جليا العنصر التعليمي فيها".

حركة " مدرسة الجزائر" *Ecole d'Alger*: في فترة الحرب العالمية وبعدها، بدأت حركة الألجيريانيزم في الضمور وبدأت تتشكل حلقات كتاب جدد. ومقابل النزعة اللاتينية التي كرستها حركة الألجيريانيزم نمت فكرة **المتوسطية** *Le méditerranéisme* (منذ الثلاثينات) (يحددها جون ديجو بين: 1935 و 1950). " وستتمحور أعمالهم حول البحر والحياة في الشمس، وستدور أحداث رواياتهم في مدن الساحل أكثر منها في عمق داخل البلاد"*(Déjeux, P38)*. إن أول من استعمل المصطلح هو أوديزيو، واستعادها ألبير كامي وأسماها مدرسة " شمال إفريقيا الأدبية".
يظهر غابرييل أوديزيو *Gabriel Audisio* (1900-1978) في بدايته صديقا للألجيريانيين ويحصل على الجائزة الأدبية 1925 عن روايته "ثلاثة رجال ومئذنة واحدة " *Trois hommes et un minaret* وسيكون له تأثير كبير فقد تغنى بالبحر: "شباب البحر المتوسط" 1935 *Jeunesse de la Méditerranée* ، و " الملح والبحر" 1936 *Le Sel et la mer* فمنذ الرواية الأولى تظهر مناقضة الألجيريانيزم إذ يستبعد النزعة اللاتينية " فيتحدث الكاتب أولا عن الجزائر المعمرة (وليس الجزائر المحتلة) بمثابة " امتزاج طبيعي للدماء".. البحر أمنا *(La mer est notre mère)*، (وطني) قبل كل شيء، الاستمتاع بالحياة في الشمس على شاطيء البحر.. إن الجزائر تشكل بالنسبة لأوديزيو " مزيجا هو في طريقه نحو الاستقرار، و الذي سيكون الجزء منه "الجزائري"، حصيلة لأعراق متناخمة ملحومة بالثقافة الفرنسية، سأسميه إقليم البحر المتوسط "*(Déjeux, P38)* . ومن أبرز أسماء الحركة: كلود دي فريمنفيل *Claude de Fréminville* , وإيمانويل روبليس (1914-1995) *Emmanuel Roblès* , لكن يبقى أبرز صوت في الحركة هو ألبير كامي *Albert Camus* (1913-1960) (نوبل 1957).